

الجانب الاجتماعي في الشعر الحديث

شوقي - حافظ ، مطران

بقلم أحمد عبد المجيد الغزالي

كتب إلى بعض المعنيين بدراسة الأدب الحديث ، يطلبون أن يتسع البحث فيشمل الجوانب الفنية الأخرى ، في شعر شوقي وصاحبيه ، وهم يشعرون بهذا الطلب بمررات لا تخلو من وجاهة ، فأحد الكاتبين يرى أن من الصعب حصر المعاني الاجتماعية ، التي بها شاعر كشوقي ، في قصائده ومقطوعاته ، والكاتب يريد لي الخيطة لأصدر في حكي على شوقي "الشاعر الاجتماعي" ، عن دقة واستقصاء ، ويؤكد لي - وأنا في غنى عن توكيده - أن لشوقي "لفئات صريحة جريئة" إلى المجتمع في أمداحه ومراثيه ، وأنا أزيد علم الكاتب الأديب ، أن لشوقي "لفئات صريحة جريئة" إلى المجتمع ... حتى في غزله ونسيبه - إذا سلمنا أن له غزلا ونسيبا ، ومستعد أن أهديه إلى هذه اللفئات في جملة غير جملة الشؤون الاجتماعية ، تسع صفحاتها ، لهذا اللون من الكتابة ..

أقول مرة أخرى ، إنني لا أكتب دراسات أدبية في هذه المجلة ، وإنما أحاول إبراز فكرة خاصة ، في ناحية خاصة ، تنساق في اتجاه التحرير ، الذي تؤثره هذه المجلة ، وتحصر عليه . إذ أن أكلف نفسي عنتا في لم شتات هذه المعاني المبهمة هنا وهناك ، التي تناول المجتمع من قرب أو بعد ، وتكفيني القصائد القلائل التي قالها هؤلاء الشعراء في الاجتماع ، لإبراز هذه الفكرة ، لأصل منها إلى تصوير المثل العليا ، في شعر القومية والاجتماع . وأعود إلى الكاتب الفاضل ، لأقول له : إن هذه اللفئات التي يلفتني إليها ، لن تغير شيئا مما قلناه عن شوقي في المقال السابق ، وشوقي بعد هذا كله شاعر فذ ، له مكانته وخطوره في تاريخ الأدب الحديث ، ولن ينقصه ظهور حافظ عليه في هذا المضمار ، فقد كان لكل من الشعارين موقف من المجتمع ، حتمه الزمن وفرضته الحياة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يتقلت من حكم الزمن ، وتكاليف الحياة ؟!

وإن كانت ثمة ناحية يبدو لنا الفرق فيها هائلا ، بين حافظ وغيره من شعراء هذا الجيل ، فهي تلهم الناحية وحدها ، لحافظ شاعر جلي كثيرا من معارض الشعور في الحياة الشعبية ، وسجل كثيرا من مظاهر القومية المصرية ، وبيئاتها الاجتماعية ، على تباين طبقاتها ، وشدة هذا التباين ، وإن أسباب عيشه ، وملابسات أيامه كما يقول العقاد " كانت أدعى إلى توجيهه ، هذه الوجهة ، وأدنى إلى إقامته في هذا المقام ."

ويظهر أن ظروف الحياة حقيقة هي التي تسيطر على المواهب والعبقريات ، وتوجهها حسب مقتضيات المجتمع ، ومطالب البيئة . فلو أن الأيام وضعت حافظاً موضع شوق ، وأحلت شوقياً مكان حافظ ، لانعكست الآية ، وجرى كل منهما الشوط الذي جراه صاحبه ولم يزد قيد أنملة — أريد بذلك أن أطمئن المشفقين على مكانة "أمير الشعراء" من شاعر النيل ، فما كان لحافظ أن يعيش بعيداً عن الشعب ، وهو يجوب شوارع القاهرة على رجله في ضحوة الصباح ، ويقف على ضفة نيلها في روعة الأصيل ، ويعبث في مقاهيها وأنديتها الليل الساهرة الشاعرة . وما كان لشوق أن ينأى عن القصر وهو شاعره ، شاعر الأمير ، تسغله أهبه الملك عن رغبة المجتمع ، ومظاهر النعمة عن أشباح البؤس والفاقة .

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب

فهو يعتر بهذا اللقب ، ولن يستطيع أن يهمل حقه عليه ، وهو بذلك رضى البال مستريح الخاطر .

أما حافظ فكما يقول الدكتور طه "صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء ، وأوساط الناس ، تراه في كل بيئة وتراه في كل مكان ، خالط الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ، وصور نفسه في شعره فصوّرها الناس جميعاً" .

من أجل هذا أجاد حافظ التعبير عن آمال الشعب وآلامه ، وبرع في ذلك إلى حد الرضا والإعجاب ، وجرؤ على مواجهة الشعب بحقيقة أمره ، غير هياب ولا وجل ، واستجاب لداعى القومية في خفة واهتمام ، فأحبه الشعب ورضى أن يكون لسانه الناطق ، ورسوله الأمين . عاش حافظ يرقب الشعب عن كثب ، ويدفعه دفعا إلى الحياة الحرة الطليقة ، فيرغبه في النهوض بمبتواه ، ويبصره بالمثل العليا ، ويسحر منه ، إن استحق السخرية والازدراء ، لا يصانع أو يداجي .

أمة قد فت في ساعدها بفضها الأهل وحب القربا

تعشق الألقاب في غير العلاء وتفدى بالنفوس الرتبأ

وهي والأحداث تستهدها تعشق اللهو وتهوى الطربا

لا تبأى لعب القوم بها أم بها صرف اليبأى لعبا

وقريب من هذه المعاني التي كان يرسلها حافظ في ثورة وعنف ، هذان البيتان :

أمور تمر وعيش يكر ونحن من اللهو في ملعب

وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجر

وهل تطلب من شاعر يتصدى للكلام في القومية والاجتماع ، تصريحاً أوضح وأصرح من هذا التصريح الجارح القاسي :

وإذا سئلت عن الكفاية قل لهم هي أمة تلهو وشعب يلعب
 في هذا الاتجاه تقرباً أخضب ما قال حافظ وأمتعه، هذا الذي خص به المجتمع أيام انحلاله
 وتدهوره، فعالج أمراضه، وفاخر بماضيه وشهر بماضيه — لا يخشى بطش الحاكم، ولا يرهب
 صولة المحتل، كل ذلك في أيام كان حديث الناس فيها همسا، وخطو الناس فيها احتراسا
 كما يصور شوقي يثرّب في الأيام الغابرات .
 يصبح حافظ بالمجتمع، ليغير أوضاعه المعكوسة، التي يحسن أن تستقيم، ويعدل نظمها القلقة
 التي يمكن أن تستقر :

لعمرك ، أرقّت لغير مصر	وما لي دونها أمل يرام
ذكرت حلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال	وأيام الزمان لها غلام
فأقلقنا مضجعي ما بات فيها	وباتت مصر فيه، فهل الام؟

أخشى إن أنا مضيت في القصيدة ألا أنتهى حتى تنهى ، وقد وجهها حافظ إلى الأمير
 حسين كامل ، رئيس مجلس الشورى والجمعية العمومية ، والقصيدة سجل حافظ ينطق بأمال
 مصر ، ويفيض بآلامها ، وهي في المحنة الدامية والبلاء الشديد :

أرى شعبا بمدحرة العوادي	تمخخ عظمه داء عقام
إذا ما صر بالباساء عام	أطلّ عليه بالباساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى	تخطف رزقه ذلك الزحام

أترى حافظا ينسى فلاح مصر وهو في هذا المقام ، وكيف وهو ثروة الأمة وعتادها ؟
 أبا الفلاح إن الأمر فوضى وجنل الشعب والفوضى لزام .
 فأسعدنا بنشر العلم ، وأعلم بأن النقص يعقبه التام .
 أجيبنا : حل يراد بنا وراء فنقضى أم يراد بنا أمام
 ويلج حافظ على معاني الرثاء ، فلا يقف عند الفجعة في الزعيم الشاب ، يستوحىها
 ألوان الألم ، وأحوال المصائب ، فلا يزعم أن السماء تساقط كسفا ، ولا الأرض تمور مورا ،
 ولا الليل يشق الجيوب ، وإنما :

هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح	فقد أسكت الصوت الذي كان عالياً
ومات الذي أحيا الشعور وساقه	إلى المجد فاستجيا النفوس البوايا

يموت المداوي للنفوس ولا يرى	لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهدا	فأسهرتنا حزنا وأمسيت غافيا

وهو إذا أراد أن يعلو في معاني النكبة في الزعيم الشاب ، لا يقول أكثر من أن مصطفى كاملا ، لم يكن فردا ، وإنما كان جيشا بلجا غازيا :

ثلاثون عاما بل ثلاثون درة يجيد الليالي ساطعات زواهيا
مستشهد في التاريخ أنك لم تكن قتي مفردا بل كنت جيشا مغازيا
يخلص حافظ من معاني الرناء ، إلى معاني الوطنية والاجتماع ، في مرونة وحذر .
الزعيم الراحل ، شاب في زهوة العمر ، وريعان الشباب ، فلزأما أن يتأساء الشباب ، ويسيروا
على طريقته ، والأيام كفيية أن تخلق من كل واحد منهم مصطفى كاملا ، إذا هم زاحوا
الأيام ، وعركوا الحياة ، في بسالة واعتداد ، لا تفقههم تلك السدود والحدود ، ولا تجرفهم
تلك الأمواج العاتية الجبارة :

يا أيها النسر سيرا في طريقته وثابروا ، رضى الأعداء أو تقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو جازه السام
قد كان لا وانيا يوما ولا وكلا يستقبل الخطب بساما ويقتحم
نقول . . . حتى مواطن الرناء كان حافظ حريصا على أن يزحمها بمعاني القومية

والاجتماع ، وهو في كلنا الناحيتين شاعر نسيج وحده ، لا يدانيه شاعر آخر ولا يجاربه . .
وحافظ ، ذا فرغ للاجتماع ، وليس في ذهنه غيره ، أتى بالعجب لأنه يرسل الشعر عن طبع
دافق ، ووجدان مشوب . . . وما أحسبني قادرا على قول كل ما أريد أن أقوله .
حافظ "الشاعر الاجتماعي" حقا في مقال واحد ، محدود الصفحات — ذلك لأنني أريد أن أرد
بمناذج من شعر الرجل ، على اللفظ الذي يدور حول اسم حافظ ، في أندية الأدب ومحلاته هذه
الأيام ، ماذا يريدون أن يقولوا ؟ أهان حافظ على الناس وهو الشاعر الذي شدا في شعره
الناس ؟ أرجو أن يعمل أشدهم غلوا ، واعتددا بشاعريته ، فاذا وصل إلى ما وصل إليه
حافظ ، فيمت راضيا مرضيا . . . أقل ما يقال ، فارقا بين حافظ وشعراء هذه الأيام ، إنه
مفهوم معقول ، شعره كصفحة الغدير السيل ، وليس أحاجي ولا أنغازا ، وأنا متشائم بمصير
الشعر الحديث ، إذا ظل على هذا الأسلوب من الأداء ، وتفاهة المعاني . لا يمكن أن نتظر
على يديه خيرا لهذا المجتمع ، الذي يجب أن تتعاون كل القوى المفكرة — وفي طليعتها الشعر —
على الأخذ بساعده حتى يسير وتنظم خطاه ، في غير مشقة أو عناء .

لن ننكر أن الشعر المعاصر قرب من المجتمع عن طريق الغناء ، فتناول معانيه ولكن
في غير هوادة ولا رفق .

إذا نحن طابنا الشاعر بالإفصاح عما ينتج في ضميره ، فلا نطالب الشاعر الغنائي
بأكثر من هذا . . . أريد أن أصل إلى أن شعراء الغناء عندنا لم يوقفوا كما ينبغي والذي

نرجوه لهم . بعد أن تقدم لهم المثل العليا في شعر القومية والاجتماع ، أن يروضوا أنفسهم على نظم أمانى المجتمع ورعاته في سهولة ويسر ، وبذلك يتأتى للشعر أن يذيع رسالة المجتمع ضامنا لها الخلود والبقاء ، وسأفصل القول في علاقة الشعر الاجتماعي بالفناء في فرصة أخرى . وكيف يستطيع الشاعر أن يصل مع المعنى إلى خدمة المجتمع ورفع مستواه ، ثقافيا وحلقيا ، فيتجاوى السامع عن هذه الرخاوة والميوعة التي تشيعها اللغة الدارجة في لحن المعنى وإيقاعه . وفي طوق شعرائنا أن يستغلوا هذه الفقرات الحرجة التي تمر بالعام مرورا ثقيل الخطو ، شديد الوضأة ، والتي تسكن النفوس فيها إلى وسائل السلوى والتسرية ، وتغادع في أعماقها هذه الأحاسيس المروعة الخفية . . . أقول في وسع شعرائنا أن يبادلوا المجتمع الرأي في كل ما يشد أزره ، ويقوى بنيانه ، ويدعم ركنه ، وأن يمددوا إلى تلوين ما يقولون بلوان متألقة زاهية ، لتقبل عليه النفوس في شوق وارتياح ، فيستطيع المجتمع أن يتلمس الشجاعة الكامنة في تجايدته ، لمواجهة ما يضمه الغد المجهول في أطوائه وتضاغيفه . . . والنفوس في مثل هذه الظروف الكريمة تقبل ما يلقي إليها سهلا سائما من معاني الحياة ، النابعة من البيئة ، والصادرة عن الشعور الصحيح بالقومية الحقة . . . فليس إذن على شعرائنا أكثر من أن يكونوا سادة صرحاء مفهومين ، كما كان شعراؤنا الثلاثة خاصة حافظا الشاعر الاجتماعي الفرد الذي تشهد بذلك آياته في القومية والاجتماع ما

أحمد عبد المجيد الغزالي